الفصل الأول

مفهوم الحضارة ونظريات نشأتها

قبل أن نتحدَّث عن الحضارات المصريَّة ومقوماتها وإنجازاتها ، وأسباب انهيارها لابد أولاً أن نتحدَّث بإيجاز عن معنى الحضارة ومقوِّماتها حتى يكون هناك معيار محدَّد نقيس على أساسه الحضارات المصريَّة وغيرها من الحضارات تجنيباً للهوى ومنعاً من ازدواجيَّة المعايير .

معنى الحضارة ومقوماتها

انتهى كثير من علماء الحضارة إلى أن كلمة حضارة تعني كل ما نجح الإنسان في إنتاجه ماديّاً أو عقليّاً نتيجةً لتفاعل الجماعة مع البيئة التي تعيش فيها . ويطلق البعض على النتائج الماديَّة كلمة مَدَنيَّة ، وعلى النتائج العقليَّة كلمة ثقافة . وتعتبر الحياة الدينيَّة ، والسياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، والفكريَّة لأيِّ بلد بمثابة مظاهر لحضارته وتقدُّمه في سائر المجالات . (١)

ويرى بعض المفكرين أن هناك فرقاً بين مفهوم : المَدَنيَّة ، والثقافة ،والحضارة: * **المَدَنِيَّة** : هي الرقيُّ في العلوم التجريبيَّة كالطب والهندسة والكيمياء والزراعة والاختراع الآلي ، وسُمِّي الرقيُّ في هذه العلوم " مَدَنيَّة " لارتباط الرقيِّ فيها بالمَدَنيَّة والاستقرار ، وعلى هذا فالمَدَنيَّة تستهدف السيطرة على الطبيعة ، وإخضاع ظروف البيئة للإنسان ،ومن هنا كانت الثقافة تحريراً للإنسان وتقويماً له.

---

(1) د. علي رضوان " مصر القديمة ، بلد التجربة والخبرة والحكم والعبرة " ص ١ مطابع الأهرام التجارية – قليوب .

الثقافة : في اللغة هي التهذيب والصقل ، يقال ثقَّف الرمح أي قوَّمه وسوَّاه ، ومعناها الاصطلاحي : الرقيُّ في الأفكار النظريَّة ، وذلك يشمل الرقيُّ في القانون والسياسة والإحاطة بقضايا التاريخ المهمَّة ، والرقيُّ كذلك في الأخلاق والسلوك ، وأمثال ذلك من الاتجاهات النظريَّة .

ولا يستغنى الرقيُّ في العلوم التجريبيَّة عن الحصول على قدر كافٍ من العلوم النظريَّة الداخلة في نطاق الثقافة ؛ ولذلك نعيب على الطبيب أو المهندس الذي لا يعرف قضايا التاريخ أو اتجاهات السلوك الضروريَّة ، ونصفه بأنه غير مثقَّف ، ويعد ذلك وصفاً قاسيّاً يحاول كل إنسان أن يتحاشاه .

أما الحضارة فتشمل الرقى في المجالين جميعاً ، فهى على العموم الإنجازات التى تحققت للبشريَّة أو حققتها البشريَّة . (١)

وإذا كانت المَدَنِيَّة هى وسائل وأدوات الإنسان الماديَّة وهى دوليَّة صالحة للتطبيق في سائر دول العالم وتسعى كلُّ الأمم إلى امتلاك الجديد المتطور فيها متى وجدت لذلك سبيلاً ، فإن الثقافة موضوعها الإنسان نفسه والإبداع فى مجال المعنويات (الدين ، الأخلاق ، القيم ، والعادات ..) وهى محليَّة فكلُّ أمَّة لها ثقافتها الخاصة التى تعتز بها وتحرص على بقائها واستمرارها ، وتقاوم الغزو الثقافى الخارجى .

وإذا كانت الحضارة تشمل الثقافة والمدنيَّة ، أي تشمل الأخلاق والسلوك والمعارف النظريَّة ، كما تشمل العلوم التجريبيَّة كالطب .. ، فإن أيَّة دولة مهما ضربت فى مجالات التقدُّم المختلفة يمكن أن تسمى أنها غير متحضِّرة لو أنها عبثت بالقيم الإنسانيَّة والسلوك ، أو كانت مستعمِرة غاشمة ، أو ظالمة جائرة ، فكل ذلك يتنافى مع مدلول الحضارة . (٢)

مقوِّمات الحضارة

يشترط علماء الحضارة عاملين رئيسيين لنشأة أي حضارة :

العامل الأول : المقوِّمات الطبيعيَّة التي تتمثل في :

---

(1) د. أحمد شلبي " موسوعة الحضارة الإسلاميَّة " ج١ ط٦ مكتبة النهضة المصريَّة ص ١٩ ، ٢٠ .
(2) نفسه ص ٢١ .

١- أحواض الأنهار الكبرى كالنيل في مصر ، ودجلة والفرات في العراق ، والسند في الهند ...

٢- المُناخ وهو من أكثر العوامل الطبيعيَّة تأثيراً في حياة الإنسان وفي تقدُّمه ، فلابد من توفُّر مُناخاً مُعتدلاً ، وشمساً مُشرقة ، وسماءً صافيةً ، وهواءً عليلاً ، ورياحاً لا بالعاصفة ولا بالساكنة ، واختلافاً في حرارة فصول السنة .

٣- الموقع الذي يمكِّنها من الاتصال بالعالم الخارجي والتفاعل معه والتَّأثُر به والتأْثير فيه .

٤- الحدود الآمنة من العدوان الخارجي .

٥- الثروات المعدنيَّة من حديد ونحاس وذهب ...، والصخور كالجرانيت والرخام ... والأحجار الكريمة كالماس والعقيق ...

العامل الثاني : المقوِّمات البشريَّة وهي السمات التي تميز الشعوب المتحضرة والتي تمكِّنهم من استخدام المقوِّمات الطبيعيَّة أحسن استخدام ومن أهم هذه السمات : الفطنة والذكاء ، والجد والاجتهاد ، والتضحية والفداء ، والإخلاص والإتقان ، والتعاون والإيثار ...

وأن هذه العوامل قد توَّفرت جميعهاً في مصر القديمة لذا تمكَّنوا من إنشاء أول حضارة عرفها التاريخ فقد كانت مصر قبل أن يسكنها المصريون القدماء في حالة بدائية ليس فيها من مظاهر المَدَنيَّة أو الحضارة شيء ، وقد تعجب كيف تحوَّلت هذه البلاد من هذه الحالة البدائيَّة إلى ما هو مشهور عنها من مظاهر الحضارة المصريَّة القديمة ؟ والجواب عن هذا ، هو أن هذا التحول العظيم يرجع إلى عاملين رئيسيين :

أولاً : أن مصر مع ما كانت عليه في العصور القديمة من حالة بريَّة إلا أنها كانت تحتوي على المقوِّمات الأساسيَّة اللازمة لقيام حضارة عظيمة (نهر النيل ، المُناخ المعتدل ، الموقع المتميز ، الحدود الآمنة ، الثروات المعدنيَّة)، ولم يكن ينقصها إلا جهد الإنسان وتفكيره لإقامة هذه الحضارة .

ثانياً : أن قدماء المصريين ، الذين استوطنوا هذه البلاد ، كانوا على جانب كبير من الفطنة والجد والاجتهاد ، وقد استخدموا هذه الميزات في التغلب على الطبيعة ،

فأقاموا حضارتهم العظيمة على مسرح البريَّة والتوحش ، وبذلك اجتمعت في مصر المقوِّمات الطبيعيَّة والمقوِّمات البشريَّة مما هو ضروري لقيام أي حضارة . (١)

لا حضارة حقيقيَّة بغير هداية سماويَّة

والحقيقة أن مقوِّمات الحضارة : الطبيعيَّة منها والبشريَّة غير كافية وحدها لإنشاء حضارة وهي تفسير نظري حَدْسي لنشأة الحضارة المصريَّة القديمة أوَّل حضارة عرفتها البشريَّة .

إن مقوَّمات الحضارة الحقيقيَّة – وليست المَدَنيَّة أو العمران أو الثقافية – لا بد أن يتوفَّر فيها جانبان :

١– دين سماويٌّ (عقيدة ، وعبادة ، وشريعة ، وأخلاق) .

٢– إبداع إنساني : علميّ (علوم : إنسانيَّة ، وطبيعيَّة ، ورياضيَّة ، وفلكيَّة ...) وتِقَنِي (اختراعات متطورة) ومادي (تشييد وبناء ...) وفني (أدب ،ورسم ،ونحت ، وموسيقى ، وتصوير) وبدني (رياضة : فروسيَّة ، رماية ، سباحة ، عدو، ..) .

فالحضارة إذن لابد أن تشبع جميع كيان الإنسان روحيّاً (عقيدة وعبادة) وعقليّاً (علوم ومعارف) وقلبيّاً (فنون وآداب) وإنسانيّاً (مكارم في الأخلاق ، واستقامة في السلوك) وجسديّاً (صحة ونشاط ، وخلو من الأمراض) كما لابدَّ أن تكون هادية لغيرها ، ناشرة لخيرها ، محافظة على توازن الإنسان والكون ولم تكتمل هذه العناصر مجتمعة إلا في الحضارة المصريَّة القديمة والحضارة الإسلامية الوسيطة ." (٢)

فمقوَّمات الحضارة الطبيعيَّة والبشريَّة فحسب لا يصنعان حضارة حقيقيَّة قد يصنعان تقدُّماً علميّاً وتكنولوجيّاً ، يغزوان البلاد ويذلاَّن العباد ولا يحققان إلا البؤس والشقاء ، ومصيرهما الهلاك والفناء ؛ قد يُحَقِّق التقدُّم العلميُّ والتكنولوجيُّ مكاسب ماديَّة ومغانم اقتصاديَّة لكنه أبداً لن يحقِّق سعادة النفس ولا طمأنينة القلب ولا غذاء الروح ؛ فإن لم تُقَم المَدَنيَّة على دين صحيح فإنها لن تصنع إنساناً سويّاً، ولن تقيم

---

(1) د. علي رضوان " مصر القديمة ، بلد التجربة والخبرة والحكم والعبرة " ص ٢ .
(2) " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " للمؤلف ص ٣٠٩ ، ٣١٠ مكتبة مدبولي .

حضارة خالدة تنفع الإنسانيَّة . وهذا هو حال جميع مَدَنِيَّات الممالك والإمبراطوريات التي لم تُبْن على تعاليم السماء (الحق والعدل وحسن الخلق) كلها زالت غير مأسوف عليها بسبب ضلالها وظلمها .

{ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [الروم : ٩]

وهي دعوة إلى النظر في أحوال الأمم القديمة والحديثة التي شيَّدت مَدَنِيَّتها على المقومات الطبيعيَّة والبشريَّة فحسب دون تعاليم السماء ، نعم ملكوا القوة الباطشة {كانوا أشدَّ منهم قوَّة} وحرثوا الأرض وشقُّوا عن باطنها ، وكشفوا عن ذخائرها {وأثاروا الأرض} وعمَّروا الأرض ؛ فأقاموا المدن الكبيرة وبنوا فيها القصور الفخمة وزيَّنوها بالحدائق الجميلة ونحتوا فيها التماثيل الضخمة وأحاطوها بالأسوار الجميلة ذات الأبراج العالية { وعمروها أكثر مما عمروها } لكنهم وقفوا عند ظاهر الحياة الدنيا لا يتجاوزونه إلى ما وراءه : { وجاءتهم رسلهم بالبينات } .

فلم تتفتح بصائرهم لهذه السيئات؛ ولم يؤمنوا فتتصل ضمائرهم بالنور الذي يكشف الطريق . فمضت فيهم سنَّة الله في المكذِّبين؛ ولم تنفعهم قوَّتهم؛ ولم يُغْن عنهم علمهم ولا حضارتهم؛ ولقوا جزاءهم العادل الذي يستحقُّونه : { فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون } .[1]

قال تعالى : { أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السمآء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ } [الأنعام : ٦]

ألم ير أصحاب المدنيات العلمانيَّة اللادينيَّة إلى مصارع الأجيال الغابرة . وقد مكَّنهم الله في الأرض ، وأعطاهم من أسباب القوَّة والسلطان ما لم يُعْط مثله لهؤلاء وغيرهم ؛ وأرسل المطر عليهم متتابعاً ينشئ في حياتهم الخصب والنماء ويفيض عليهم من الأرزاق .. ثم ماذا ؟ ثم عصوا ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من

([1]) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٥ ص ٤٨١ .

بعدهم جيلاً آخر ، ورث الأرض من بعدهم ؛ ومضوا هم لا تحفل بهم الأرض! فقد ورثها قوم آخرون! فما أهون المكذِّبين المُعْرِضين أصحاب القوَّة والتمكين من البشر! ما أهونهم على الله ؛ وما أهونهم على هذه الأرض أيضاً! لقد أُهْلِكُوا وغَبَروا فما أحسَّت هذه الأرض بالخلاء والخواء؛ إنما عمَّرها جيل آخر؛ ومضت الأرض في دورتها كأن لم يكن هنا سكان؛ ومضت الحياة في حركتها كأن لم يكن هنا أحياء!

وهي حقيقة ينساها البشر حين يمكِّن الله لهم في الأرض . ينسون أن هذا التمكين إنما تمَّ بمشيئة الله ، ليبلوهم فيه : أيقومون عليه بعهد الله وشرطه ، من العبوديَّة له وحده ، والتلقي منه وحده – بما أنه هو صاحب المُلْك وهم مُسْتَخْلَفون فيه – أم يجعلون من أنفسهم طواغيت ، تدَّعي حقوق الألوهيَّة وخصائصها؛ ويتصرَّفون فيما اسْتُخْلِفُوا فيه تصرَّف المالك لا المُسْتَخْلَف .

إنها حقيقة ينساها البشر – إلا من عصم الله – وعندئذ ينحرفون عن عهد الله وعن شرط الاستخلاف ؛ ويمضون على غير سنَّة الله ؛ ولا يتبيَّن لهم في أوَّل الطريق عواقب هذا الانحراف ، ويقع الفساد رويداً رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون ، حتى يستوفي الكتاب أجله؛ ويحق وعد الله ، ثمَّ تختلف أشكال النهاية: مرة يأخذهم الله بعذاب الاستئصال – بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام – ومرة يأخذهم بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث كذلك لأقوام – ومرة يأخذهم بأن يذيق بعضهم بأس بعض؛ فيعذَّب بعضهم بعضاً ، ويدمِّر بعضهم بعضاً ، ويؤذي بعضهم بعضاً ، ولا يعود بعضهم يأمن بعضاً؛ فتضعف شوكتهم في النهاية؛ ويسلِّط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاة– يكسرون شوكتهم ، ويقتلعونهم مما مُكِّنوا فيه؛ ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم.

وهكذا تمضي دورة السُّنَّة .. السعيد من وعى أنها السُّنَّة ، ومن وعى أنه الابتلاء؛ فعمل بعهد الله فيما اسْتُخْلِف فيه . والشقي من غفل عن هذه الحقيقة ، وظنَّ أنه أوتيها بعلمه ، أو أوتيها بحيلته ، أو أوتيها جزافاً بلا تدبير!

وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي ، أو المستهتر الفاسد ، أو الملحد الكافر ، مُمَكَّناً له في الأرض ، غير مأخوذ من الله ، ولكنَّ الناس إنَّما يستعجلون ، إنهم يرون أوَّل الطريق أو وسطه؛ ولا يرون نهاية الطريق ،ونهاية الطريق لا ترى إلا بعد أن تجيء ! لا ترى إلا في مَصَارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث والقرآن

الكريم يوجِّه إلى هذه المَصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون – في حياتهم الفرديَّة القصيرة – نهاية الطريق؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق !

إن هذا النص في القرآن : { فأهلكناهم بذنوبهم } وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم إنما يقرِّر حقيقة ، ويقرِّر سنَّة ، ويقرِّر طَرَفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ .

إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقاديَّة التي يقوم عليها .

والتفسير الإسلاميُّ – بشموله وجدِّيته وصدقه وواقعيته – لا يغفل أثر العناصر الماديَّة – التي يجعلها التفسير الماديُّ هي كل شيء – ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة؛ ويبرز العناصر الفعَّالة الأخرى التي لا ينكرها إلاّ أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود ، يبرز قَدَر الله من وراء كل شيء؛ ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات؛ ويبرز السلوك الواقعيَّ والعنصر الأخلاقيَّ ، ولا يغفل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنّة الله في الحياة . (١)

إذن لا حضارة حقيقيَّة إلا وكانت شريعة السماء أساساً لها ، فغايات شريعة السماء ثلاث : عبادة الله ، وتعمير الكون ، وتزكية النفس .

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ }[هود:٦١]
ومن يتبع الرسل ويقوم بشريعة الله يحظى بالحسنين ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .
{ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }
[آل عمران : ١٤٨]
فمن ثواب الدنيا للذين آمنوا وعملوا الصالحات النصر على الأعداء ، والتمكين في الأرض : سعادة النفس وطمأنينة القلب والانتصار على الأعداء والرِّفعة في كل

(1) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٢ ص ٤٧٠– ٤٧٣ بتصرف .

مناحي الحياة ، وثواب الآخرة غفران الذنوب ودخول الجنَّة والخلود فيها ورضوان من الله أكبر .

أما من بنى مجده على العسف والقهر فمآل ما بنى إلى الخراب والدمار وغضب الجبار { فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى } [النازعات :٢٥، ٢٦]

{ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ } [الحج: ٤٥]

{ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ } [الحج:٤٨]

{ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام:٤٤، ٤٥]

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [يونس:١٣، ١٤]

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ } [هود : ١١٧]

{ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ } [إبراهيم : ٤٥]

{ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [النمل: ٥٢]

{ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود : ١٠٢]

إن أُسُس الحضارات الحقيقيَّة جميعها التي ظهرت على الأرض أسس دينية النشأة علَّمها الله تعالى أنبياءه ورسله الذين راحوا يبنون هذه الحضارة ، ويشيِّدون بناءها وهذا ما يفسر لنا عجز علماء الحضارة العلمانيين وفلاسفة التاريخ الماديين عن تفسير نشأة الحضارة المصريَّة القديمة نشأة كاملة متطورة على غير مثال سابق !!

نظريات المؤرخين في فلسفة التاريخ

أولاً : النظريَّة الدينيَّة (غير الإسلاميَّة)

تفترض النظريَّة الدينيَّة وجود قوَّة عظمى هي المشيئة أو القدرة الإلهيَّة التي تحدِّد مصائر الأفراد والشعوب ، إذ أن الآلهة تبعاً لتلك النظريَّة كان لها دور المَشرِّع والقاضي ففي عصر البرونز تصوَّرت الشعوب آلهتها في صورة الإنسان الصانع الذي يملك بيديه سلطة قوية إلى الحد الذي تخلق معها قانوناً يُسيِّر شئون البشر ، وهكذا اعتقد كثير من فلاسفة اليونان القديمة ، وتاريخ كهذا ينصح الحكام بكيفيَّة كسب إرضاء الآلهة أو على الأقل يوحي بالخضوع للإرادة المقدسة .

ويتفق منهج تاريخ الكنيسة المسيحيَّة مع هذا المبدأ السابق ، ولكنه بصورة أعمق إذ تعتبر حركة التاريخ الحقَّة ، هي خطَّة لخلاص العالم موضوعة سَلَفاً وبالتالي تكون مهمة المؤرِّخ هي تتبع خطوات تنفيذها ، ويعد القدِّيس أوغسطين من أبرز الممثلين لذلك المنهج الصوفي داخل الحضارة المسيحيَّة . (١)

وهذا النظريَّة المفسِّرة لنظام التاريخ وتطوره فيها حق وباطل فالحق فيها أنَّ لهذا الكون إلهاً خلقَهُ وأبدَعَهُ ، وخَلَقَ الإنسانَ وشرَّعَ له ، وسوف يحاسبه على عمله .

{ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } (الزلزلة : ٦-٨)

فهذا حقٌّ أما أن الإنسان مُسَيَّر ولا حيلة له فيما يفعل فهذا باطل فالله تعالى جعل الإنسان في هذه الدنيا مختاراً .

{ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ } (الكهف : ٢٩)

ولم يجبر الله تعالى أحداً على فعل شيء .

{ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } (يونس : ٩٩)

كما أن الخضوع لله ليس عملاً سلبيّاً كما ترى هذه النظرية إنما الخضوع لله معناه القيام برسالته وهي إخلاص العبادة لله وفق ما شرع وتعمير كونه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وعدم الإخلال بالميزان الإلهي الذي خلق الكون به .

{ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } (الرحمن : ٩)

---

(١) نيقين جمعة علم الدين " فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي " الهيئة المصرية العامة للكتاب . ص ٥

وأن القيام بمنهج الله تعالى يحقِّق رُقيّاً وتقدُّماً وسعادة في الدنيا والآخرة .

{ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا } (مريم : ٥٨)

وأن الخروج عن هذا المنهج بعبادة القوى الطبيعيَّة ، أو الأصنام ، واتباع الشهوات ، والطغيان في الأرض يهلك صاحبه في الدارين .

{ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } [القصص : ٥٩]

كما أن هذه النظريَّة لا تفسِّر لنا نشأة الحضارة ، واضمحلالها ، وموتها ، ولم تكشف لنا عن لغز الحضارة المصريَّة القديمة الذي احتار فيه المؤرخون قديماً وحديثاً .

ثانياً : النظريَّة السحريَّة :

ويعتبر المفهوم السحريِّ في تفسير حركة التاريخ أكثر قدماً من النظرية الدينيَّة فقبل أن يعرف البشر الآلهة كانت القبائل البدائية تعتقد بأن الطبيعة " مسكونة " بقوى وأرواح واعتقد هؤلاء الأقوام بأنهم يمكن أن يسيطروا على هذه القوى من خلال أعمال السحر ولهذا لم يكن المَلِك في عصور الملكيات الوثنيَّة واضعاً للقانون فحسب بل كان في نظر الرعيَّة ، مسئولاً عن توفير الرخاء الماديِّ في مملكته ، فكان ملوك مصر على سبيل المثال يضمنون شروق الشمس وفيضان النيل عن طريق ممارستهم لطقوس سحريَّة لا يمكن لأحد أن يمارسها سواهم ، ومن الطبيعي – بناءً على ذلك – أن يصبح الملك هو العامل الوحيد المؤثر في جميع الأحداث التاريخيَّة وبالتالي نجد أن سجلات الملوك القدامى ما هي إلا تعبير عن نظريَّة الرجل العظيم في التاريخ .

واعتقد اليونانيون بأن رخاء واستقرار مدنهم لا يعود إلى الدساتير وحدها بل إلى حكمة واضعيها وهكذا كان أفلاطون يعتقد أنه بمجيء المَلِك الفرد ستتخلص الحياة السياسيَّة من أسقامها ، لأن ذلك الملك هو وحده الذي يمكنه أن يفعل ذلك ، أمَّا بالنسبة للعصر الحديث فيقف " توماس كارليل " على رأس المنادين بنظريَّة "

الرجل العظيم " إذ يعتقد أن التاريخ الإنساني الذي تحقق إنما هو تاريخ الرجال العظماء . [1]

والنظريَّة السحريَّة تستبعد وجود الله تعالى ورسالاته في تقدُّم الحياة وتعزو كل استقرار ومَدَنيَّة إلى قدرات الأفراد الذين يستخدمون السحر في تسخير الطبيعة ، و يستخدمون عبقريتهم في سياسة الناس ، والحقيقة أن اللجوء إلى تفسير الحضارة إلى استخدام أصحابها السحر تفسير بدائي لا يتفق مع العلم ولا الدين ، فهذا ما يسمِّيه علماء النفس التفكير الخرافي فكل إنسان يعجز عن تفسير ما يجهله يردُّه إلى السحر والأرواح ، وأحياناً كنوع من التعمية يشيع أصحاب الحضارة أن ما وصلوا إليه من تقدُّم علميٍّ مذهل إنَّما كان عن طريق السحر كما فعل كهنة مصر مع هيرودوت وغيره من الأجانب غير المؤمنين بعقيدة قدماء المصريين .

والسحر الذي استخدمه المصريون في إنشاء حضارتهم هو سحر العلوم الإلهيَّة التي أوحى الله تعالى بها إلى أنبيائه ورسله . وهذا السحر لم يبطل بموت قدماء المصريين إنما هو باق ببقاء شرائع الله تعالى .

ثالثا : التفسير الأنثروبولوجي :

وتُرْجِع هذه النظريَّة التقدم والتحضر للتفوق العنصري فهناك شعوب قادرة على صنع هذا التقدم وشعوب غير قادرة ، وعلى الشعوب المتحضِّرة أن تقهر وتضطهد وتستغل الشعوب المتخلِّفة ، واسْتُغِلَّت هذه النظرية لتبرير القهر والاضطهاد العنصري الذي يمارسه الرجل الأبيض على الزنوج والأقليات وقد أدخلت هذه النظرية الزائفة بعض الاستعارات من مبدأ " دارون " عن الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح . [2]

وهذه النظريَّة تخالف كل الأديان السماوية الداعية إلى الرحمة والحب والتعاون بين سائر البشر وأن يرحم القوي الضعيف ويعطف الغني على الفقير .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } (الحجرات : ١٣)

---

(1) نفسه ص ٦ .
(2) نفسه ص ٩ .

وهناك نظريات أخرى لتفسير التاريخ باعتباره فرعاً للاقتصاد السياسي ، وأخرى على اعتباره علم مقارن ، وثالثة وفقاً للماديَّة الجدليَّة .

وجميعها لا تُشِر من قريب أو بعيد لدور الأديان السماوية في صناعة الحضارات الإنسانيَّة التي يجمع المؤرخون المنصفون على أنها بدأت من مصر القديمة .

وفيما يلي نعرض لأهم النظريات التي تكهَّنت بنشأة الحضارة المصريَّة القديم أمَّ الحضارات الإنسانيَّة .

نظريَّة اليوت سميث في نشأة الحضارة المصريَّة

وبؤرة نظريَّة سميث في نشأة الحضارة المصريَّة القديمة تنحصر في أن الإنسان البدائي الذي كان يجمع الطعام جمعاً من الغابات رأى في مصر على توالى السنين أن فيضان النيل يَعُم الوادي في مواعيد معينة كل عام ، حتى إذا انحسر الفيضان انطلقت النباتات وكست الأرض بالخضرة النضرة التي كان يجد فيها طعاماً كما كان يجد فيها صيداً لوفرة الحياة الحيوانيَّة . ففهم بالتكرار أن الماء هو أصل الحيويَّة ، وهو أصل النبات ؛ فشرع يحتجز الماء هنا ويطلقه هناك . ويضبط الري وهذه كانت الهندسة الأولى .

وظهر عندئذ التخصص : مهندسون ينظِّمون الري ، وفلكيُّون يعيِّنُون الأوقات الزراعيَّة ، وهؤلاء لا يزرعون وإنما يعيشون بالفائض من المحصول ، وهنا تنشأ الحكومة التي يرأسها مهندس أو فلكي تُنسب إلية صفات الألوهيَّة لأنة يدرى ما لا يدريه غيره من الهندسة أو الفَلَك . وهو يعيش كأنَّة مَلِك بل هو مَلِك يطاع فإذا مات أصبح قبره معبداً .

وأرض مزروعة تحتاج إلى حدود تُحترَم من الجيران ، وإلى أوصاف تعين الزراعة ، وإلى محكمة تعاقب المعتدى على الحدود أو المحصول ،وإلى صنَّاع يصنعون الآلات الزراعيَّة . وكل هؤلاء لا يزرعون فنشأت من ذلك الحكومة والتجارة والفنون وهذه هي الحضارة .

ويجب ألا ننسى أن كلمات " القمح " و " البُرُّ " و " الحنطة " هي جميعاً فرعونيَّة. وذلك لأن المصريين القدماء هم الذين زرعوها لأوَّل مرَّة في التاريخ وعيَّنوا أسماءها ولعلَّه كانت هناك فروق بين بذور القمح أدَّت إلى تعدد هذه الأسماء.

والزراعة هي الأساس الأوَّل الذي نبتت عليه الحضارة الأولى . أما قبل الزراعة فلم يكن هناك غير التجوال للبشر ، بلا ثقافة غير المعارف القليلة الخاصَّة بالصيد والتقاط الثمار واقتلاع الجذور .

فالزراعة أوجدت الاستقرار بدلاً من التجوال ، وبسطت الآفاق لثقافة الفنون والعلوم ونظام الحكم . (١)

ويفسِّر اليوت سميث ظهور الأفكار الدينيَّة والدين في مصر القديمة بنشأة القريَّة فعلى حين كان الرُّحَّل يتركون الميت موضع موته فقد استحال ذلك في القرى لأسباب صحيَّة واقتصاديَّة فكان لابد من دفن الموتى بعيداً في الصحراء ، ولكن الصحراء " فريجيدير " طبيعي ممتاز حفظ الأجسام فَخُيِّل لعقلية المصري البسيط أن الميت لم يمت حقيقة ما دام جسده كما هو ، ومن ثَمَّ اتجه إلى الاهتمام به في حياته الأخرى يضع الطعام والشراب والأدوات معه في القبر ، وذلك مع التحنيط زيادة في حفظه ، ومع الاهتمام " بمساكن " الموتى هذه ، كان تشييد المقابر التي تحوَّلت إلى مصاطب ثم أهرامات .. الدين وعقيدة الحياة الأخرى وحفظ الموتى إذن أدَّت إلى دَفْع النِّجارة إلى (صنع الأكفان) وإلى فن البناء (المقابر بأشكالها) كذلك فإنَّ إدراك العلاقة بين النهر والزراعة خلقت الحساب والتقويم حين ربطوا بين الفيضان وبين الشمس والنجوم وحيث الشِّعْرَى اليمانية تعين على بدء الفيضان ، وهنا سلبت الشمس الأهمية من القمر الذي ربما كانوا يربطون بينه وبين النهر في السابق مثلما سلبت من النهر قدسيته فيما بعد فأخذت عبادة الشمس وأشعتها تحلُّ محلَّ عبادته ذلك سيناريو نشأة الزراعة والحضارة والدين كما يصوره اليوت سميث . (٢)

وإلى هذا تفسِّر لنا نظرية سميث نشأة الحضارة الأولى والدين في مصر ، وبقي علينا أن نعرف كيف خرجت هذه الحضارة من مصر إلى سائر العالم ؟

ويجيبنا سميث عن هذا السؤال فيقول : إن بعض البعثات المصريَّة كان ينقطع بها الطريق فلا تعود . بل تبقى في قُطْر ناءٍ بين شعب غريب بدائي لا يعرف الزراعة فتنقل هذه البعثة إلى هذا الشعب الفنون المصريَّة وتعيش هناك إلى الأبد .

---

(1) سلامة موسى " هؤلاء علموني " دار المعارف ص ١٥٧ ، ١٥٨ .
(2) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ دار الهلال ص ٣٩٦ .

ومن هنا نعرف لماذا وُجد تمثال الرب آمون في روسيا بالقرب من جبال أورال. ولماذا عبدوا رب الشمس في المكسيك كما عُبد في مصر ولماذا حُنِّطت الجثث في أمريكا على الطريقة المصريَّة . ولماذا وُجدت الأهرام في إيطاليا والسودان . ولماذا توجد في اللغة الفنلندية كلمات فرعونيَّة ولماذا ترجع أبجديَّة الخطوط في جميع اللغات إلى الهيروغليفيَّة المصريَّة . ولماذا يعمُّ التقويم المصري أوربا بل العالم كله إلى الآن . ولماذا بُنيت المعابد وذُكرت الأساطير على الطريقة المصرية. بل لماذا يوصف إمبراطور اليابان بوصف الفراعنة " ابن الشمس" أي "ابن رع". وأخيراً لماذا تكون الحبوب الأولى التي يأكلها الإنسان ولا يزال يأكلها مصريَّة الاسم مثل قمح ، وبُرّ ، وحنطة .

وشارة الكاهن المصري القديم ذلك الثعبان الذي كان يحيط بالرب " رع " والثعبان لا يزال شارة الأسقف القبطي ، وهو يُرى على رأس عصاه إلى الآن .

ولما كان الكاهن المصري طبيباً وساحراً أيضاً فإن الثعبان هو الآن شارة الطب، وفي اللغة العربيَّة لا يزال معنى الطب هو السحر والكهانة .

واذْكُرْ البقرة هاتور (حتحور) المصريَّة واذْكُرْ تقديس البقرة في الهند . واذْكرْ أيضاً ملوك أفريقيا المتوحشين ، وكيف يضربون الجهات الأربع بالقوس كما كان يفعل الفراعنة عندما كانوا يتولون العرش رمزاً للاستيلاء على العالم .

وكذلك رجَّح اليوت سميث أن معظم الأسر المالكة في العالم ترجع إلى أصل فرعوني ، وذلك لأن كل بعثة كانت تخرج من مصر لجلب المواد والأطياب للتحنيط كان يرأسها أحد أفراد أسرة فرعون . فإذا لم ترجع البعثة صار هذا الشخص مَلِكاً على البقعة التي تحتلها بعثته . حتى إذا استقرَّ العرش الجديد خرجت بعثات أخرى ... إلخ (1)

(1) سلامة موسى " هؤلاء علموني " دار المعارف ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

يعلِّق جمال حمدان على نظرية سميث فيقول : " وهذه النظرية الكاسحة – وكاسحة هي بالتأكيد – لقيت رواجاً كبيراً واكتسحت الميدان العلمي في حين ما ولكن الانتقادات لم تلبث أن وُجِّهَت إليها بعنف وكانت أهم هذه الانتقادات ثلاثة :

أولاً : إن القول بأن كل أركان وعناصر وأفكار الحضارة برمتها قامت في موطن واحد هو مصر قول بالغ التطرف والمغالاة .

ثانياً : إن النظريَّة تنفي إمكان إعادة أي اختراع أو فكرة مرة أخرى مما يتنافى مع وحدة العقل البشري وحتى مع قانون الصُدَف .

ثالثاً : استحالة وصول الآثار الحضاريَّة من مصر إلى المناطق البعيدة كأطراف القارات كالعالم الجديد مثلا بسبب عامل البعد الجغرافي السحيق " [1]

نظريَّة دانيكن الهابطون من السماء

وللباحث السويدي " أريك فون دانيكن " عدة أبحاث أثارت ضجَّة عالميَّة عند نشرها أشهرها " العودة إلى الكواكب ، والهابطون من السماء ، وألغاز الحضارات" لقد حاول في تلك البحوث إثبات أن جميع الحضارات البشريَّة وما يحيط بها من الغاز هبط بها كائنات أو أقوام من كواكب أخرى أرقى عقلاً وعبقريَّة ومعرفة وحضارة ، وأنهم هم الذين بنوا الهرم الأكبر ليكون وسيلة اتصال بينهم وبين الأرض ، كما وضعوا أسس الحضارة الفرعونيَّة التي نشأت متكاملة ومتطوِّرة بما حوته من معجزات في علوم : الفلك والرياضيات ، والطب ، والهندسة ، والفنون والكتابة . " [2]

ولقد توصَّل دانيكن إلى آرائه بعد دراسة الوثائق المستندات التاريخيَّة لقدماء المصريين ، وبرديات كتاب الموتى .

وإذا كان المؤرخون فشلوا في الاهتداء إلى نشأة الحضارة المصريَّة النشأة الصحيحة فإنهم يكادون يجمعون على أن الحضارة المصريَّة هي أمُّ الحضارات ولقد

---

(1) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٣٩٨ مرجع سابق .
(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " ص ١٩٣ الهيئة العامة للكتاب .

انتشرت الحضارة من مصر إلى سائر البلدان الأخرى " إن الانتشار الحضاري من مصر في حدود إقليميَّة معينة هو حقيقة تاريخية لا تقبل الجدل . "[١]

نظريات المؤرخين في معرفة المصريين البعث والخلود

وكما عجز المؤرِّخون العلمانيون عن تفسير نشأة الحضارة المصريَّة عجزوا أيضاً عن تفسير معرفة المصريين القدماء فكرة البعث والخلود مبكراً فقد كانوا أوَّل المتدينين .[٢]

ودونك نظريتهم في كيفيَّة اهتداء المصريين القدماء لفكرة البعث والخلود .

حاول بعض المؤرخين أن يربط معرفة المصريين للبعث والخلود بالبيئة المصريَّة الجافة : الرمل والشمس على افتراض أن المصري الأول كان يدهش حين يرى أجساد أجداده المدفونة في بطن الصحراء في حالة حفظ جيدة فجعله يعتقد في حياة خالدة بعد الموت وبالتالي آمن بالبعث !

وردَّ آخرون فكرة الخلود إلى إحساس المصريين ببهجة الحياة في بيئتهم الرخيَّة الرغدة وبالتالي تعلقهم بها إلى حد إسقاطها على حياة أخرى بعد الموت ، وتمديدها فيها ، ومن ثم كان إعدادهم الغريب لها ابتداءً من التحنيط إلى مراكب الشمس إلى أثاث المقابر وأطعمتها !

كما فسَّر البعض ظهور فكرة الخلود عند قدماء المصريين بوجود الفراغ الآمن الذي أعان عليه الموقع الجغرافي والغنى الحافز والترف لذا فكَّروا في الخلود ولو كانت مصر قطعة مكررة من الصحراء المشابهة تحيا حياة محرومة متنقلة ما كانت هذه الحياة تستحق الحرص عليها والسعي إلى تخليدها ![٣]

ديورانت ونشأة الدين في مصر القديمة

يفسِّر " ول ديورانت " نشأة الدين فيقول : " لما كان لكلِّ شيء روح ، أو إله خفي، إذن فالمعبودات الدينيَّة لا تقع تحت الحصر، وهي تقع في ستة أقسام: ما هو سماويٌّ، وما هو أرضيٌّ، وما هو جنسيٌّ، وما هو حيوانيٌّ، وما هو بشريٌّ، يوماً هو

---

(1) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٤٠٠ دار الهلال
(2) نفسه ص ٤٢٨ .
(3) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٤٢٨ دار الهلال .

إلهيٌّ؛ وبالطبع لن يُتاح لنا قط أن نعلم أي الأشياء في هذا العالم الفسيح كان أول معبود للإنسان؛ وربما كان القمر بين المعبودات الأولى؛ فكما أننا اليوم نتحدَّث في أغانينا الشعبيَّة عن "الرجل الذي يسكن القمر" كذلك صوَّرت الأساطير الأولى القمر رجلا شجاعاً أغوى النساء وسبب لهن الحيض مرة كلما ظهر؛ ولقد كان القمر إلهاً محبباً للنساء، عَبدَنَه لأنه حاميهن بين الآلهة؛ وكذلك اتخذ القمر الشاحبُ مقياساً للزمن، فهو في ظنهم يهيمن على الجو، ويُنزل من السماء المطر والثلج، حتى الضفادع تضرع للقمر بالدعاء لينزل لها المطر.

ولسنا ندري متى حلَّت الشمس محل القمر سيدة على دولة السماء، عند الديانة البدائيَّة؛ وربما حدث ذلك حين حلَّت الزراعة محل الصيد، فكان سير الشمس محدِّداً لفصول البذر وفصول الحصاد، وأدرك الإنسان أن حرارة الشمس هي العلَّة الرئيسيَّة فيما تدِّره عليه الأرض من خيرات؛ عندئذ انقلبت الأرض في أعين البدائيين إلهة تخصبها الأشعة الحارَّة، وعبد الناس الشمس العظيمة لأنها بمثابة الوالد الذي نفخ الحياة في كلِّ شيء حيٍّ ومن هذه البداية الساذجة هبطت عبادة الشمس إلى العقائد الوثنية عند الأقدمين ولم يكن كثير من الآلهة فيما بعد سوى تشخيص للشمس وتجسيد لها .

وكلُّ نجم شأنه شأن الشمس والقمر، يحتوي إلهاً وهو بذاته إله، ويتحرك بأمر روح كامن في جوفه؛ وهذه الأرواح في ظلِّ المسيحيَّة أصبحت ملائكة تَهدي سواء السبيل .. والسماء نفسها كانت إلهاً عظيماً، تُقام لها العبادة في تبتُّل لأنها هي التي تنزل الغيث أو تحبسه؛ وكثير من القبائل البدائيَّة يستعمل كلمة "الله" لتعني "السماء" ولفظ الله عند "اللوباري" و "الدنكا" معناها المطر . "[1]

المصريون ونظريات الغرب في نشأة الديانة المصريَّة

يؤكِّد د. جمال حمدان هذه النظريات الغربيَّة في نشأة الديانة المصريَّة فيقول :

" الواقع إنَّ هذه الديانة كانت ديانة جغرافيَّة محليَّة أو بيئيَّة إلى حد بعيد فقد بدأت ديانة طوطميَّة كديانات أفريقيا البدائيَّة الحالية بل يجزم إليوت سميث أن مصر هي

([1]) ول ديورانت " نشأة الحضارة " ج١ ص ١١٤، ١١٥ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

الوحيدة في العالم التي تساعد فيها الظروف البيئيَّة على خلق الطوطمية غير أنها لم تلبث أن أصبحت أيضاً ديانة استحيائية تكاد ترى الحياة في كل عناصر الطبيعة .

ومن هنا تعدَّدت الآلهة بالمئات والمئين معظمها مستمد من عناصر ومعالم البيئة المحيطة من حيوان ونبات إما لكثرتها أو لندرتها .

ويختم كلامه في هذا الموضوع فيقول : إذا كانت الديانة الوثنيَّة المصريَّة القديمة تعد أكثر بدائيَّة نوعاً عن مثيلتها الإغريقيَّة مثلاً فقد كادت مصر الفرعونيَّة من ناحية أخرى تتوصل فيما بعد إلى إرهاصات التوحيد (إخناتون) بقدر وكادت تكون هي عِرَاق إبراهيم الأولى في العالم قبل الرسالات " [١]

وهكذا جارَى عالمنا الكبير جمال حمدان – وكذا السواد الأعظم من المؤرخين المصريين – المؤرخين الغرب في نشأة الحضارة المصريَّة ، وفكرة البعث والخلود، ويجب أن نلتمس للمؤرخين المصريين العذر في تقليدهم أساتذتهم الغربيين؛ أليس هؤلاء الغربيون هم الذين اكتشفوا حجر رشيد ، وفكُّوا رموزه ، وأوَّل من أنطق الآثار المصريَّة القديمة بعد صمت دام آلاف السنين ،وأوَّل من حفر ونقَّب عن المقابر والمعابد والتماثيل المصرية القديمة ورمَّموها ، وأوَّل من ألَّفَ الكتب العلميَّة المتخصصة في الحضارة المصريَّة واللغة المصريَّة القديمة .

يقول د. سليم حسن : " أما أكبر عالم خدم التاريخ المصري القديم فهو الأستاذ "برستد" [٢] الذي جمع كل المتون التاريخيَّة واستخلص منها تاريخاً لمصر يعتبر رغم قدمه من أكبر المراجع في التاريخ المصري القديم إلى الفتح الفارسي ، أمَّا المصريون فلم يقوموا بدراسة لغة بلادهم وآثارهم إلا منذ عهد قريب وعلى رأسهم المرحوم أحمد كمال باشا . " [٣]

---

(1) د. جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ ص ٤٢٨ دار الهلال .
(2) برستد هو جيمس هنري برستد (١٨٦٥–١٩٣٥م) عالم آثار ومؤرخ وعالم مصريات أمريكي الجنسية أهم إنجازاته كتابه الضخم Egypt, Historical Documents Ancient Records of. الذي ضمنه أكثر من عشرة آلاف وثيقة مصرية قديمة قام بترجمتها ونشرها فى مجلدات أربع، وأخيرا نشرت بالعربية وصدرت في أربع مجلدات أيضا بعنوان "سجلات تاريخية من مصر القديمة " .
(3) د. سليم حسن " مصر القديمة " ج١ ص ١٣٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

لكن ما يؤخذ على المؤرخين المصريين – مسلمين ومسيحيين – حقّاً هو تسليمهم بالنظريات الأجنبيَّة في نشأة عقيدة البعث والخلود وغضِّهم الطرف عمَّا جاء في الكتب السماوية من عقائد دينيَّة .

يقول مهدي مصطفى في تقديمه لكتاب " الدين في مصر القديمة " للكاتبة أبكار السقاف : " وقعت النخبة تحت سيطرة مفاهيم الآخر ، خاصة بعد ذيوع وانتشار مدارس التنوير الأوربيَّة ، فما كان من تلك النخبة – في البداية – إلا أن قلَّدت المناهج الأوربيَّة وأخذت عنها فجاءت بعض أفكارها مشوشة وتابعة إلا القليل النادر منها نجا من تلك المحرقة وظلَّ " مسكوتاً عنه " ولم ينتشر ولم يدخل في النسخ العام "[1]

***

(1) " الدين في مصر القديمة " إبكار السقاف تقديم مهدي مصطفى . العصور الجديدة ص ٨ .